حصانتنا الأخلاقية

بقلم الكاتبة زينب محمد حسين

« أذيعت هذه الكلمة من محطة الاذاعة بالاسكندرية فى ١٥ يونيو سنة ١٩٤٤ وذلك بدعوة من وزارة الشؤون الاجتماعية »

المحرر

إن مثلنا الأعلى فى الحياة التى ننشده جميعا على اختلاف طبقاتنا وهيئاتنا هو النهوض بأمتنا العزيزة ، ذات المجد الخالد ، والتراث القديم ، حتى تتبوأ المكانة اللائقة بها بين الأمم الراقية المتحضرة .

ولكن كيف يتم لنا ذلك ؟ سؤال طالما تحير على شفاهنا ، وتاقت نفوسنا لتحقيقه ، ومع ذلك لو فكرنا قليلا فى كيفية ارتقاء الأمم الناهضة لوجدنا أن الأخلاق هى التى تنهض بها إذا اكتملت وتحصنت ، وهى التى تتحدر بها إذا ضعفت وخارت .

فالأخلاق الفاضلة هى الصورة المجلوة التى تحدثنا بوضوح عن مدى تقدم كل أمة ، وهى العدسة التى تسجل بدقة مدى ما قطعته من شوط فى مضمار التقدم ، ومعارج الرقى .

ومما لاشك فيه أن انسانا فاضلا يؤدى أعمالا فاضلة ، ويكون بين مواطنيه مثلا أعلى للفضيلة وتضحية الذات ، لا يقل منفعة لدولته عن قائد محنك يغزو البلاد .

فاذا كان هذا يكسب أمته أرضا جديدة ، فذلك يكسبها سمعة خالدة ، وتشهد الأمم المتمدينة أنها سادت بخلقها ، لأن أفرادها هم الذين يكونون سمعتها القومية ، وكل واحد منهم يعتبر قائدا فى محيطه ، يترسم أفراد الشعب خطاه ، ويتشبهون بخلقه على قدر الإمكان .

وهؤلاء القادة يدركون أن الحركات والأقوال والاشارات والسكنات والآراء محسوبة على أمتهم ومرصودة ، ولذلك ذنهم وزنوا تصرفاتهم بميزان الحكمة والعقل ، فهم فى ميادين الحياة الثلاثة يمثلون الانسان الكامل . ففى ميدان العمل تلمس سعة الصدر وتعمق فى دقائق الموضوع ، فى دعة وصفاء نفس ، فاذا كان منهم طبيب حاص همش فى وجه المريض ، وإذا كان فى مستشفى مجانى ازداد اياسه وازدادت مشاركته الوجدانية للمريض ، فيسأله فى لطف عن علته وموضع شكواه ، ويتتبع مرضه كأنما هو طبيبه الخاص ، لأنه يعلم أن هذا المريض قد هاجم فيه المرض نفسيته فأصبحت علته علتين ، وأن العلة النفسية تؤثر على العلة الجسمانية بل إن العلة النفسية تأتى فى المرتبة الأولى ، فما فائدة أن يشفى الطبيب مفحص المريض مثلا ويورثه مذلة النفس ، وأى دولة تفخر بطبيب سريع الانفعال أحمق يجهل أولى مبادئ مهنته وهى الدماثة وصفاء النفس .

وإذا كان محاميا أو موظفا فلا يسىء الجمهور وإنما يؤدى له مطالبه كما لو كان يؤديها الى أحد أقربه بإخلاص ونزاهة ، فى أدب ومجاملة .

ويراعى الرئيس أن لا يسيء استعمال سلطته على مرؤوسيه ، فيخفف من حدة هذه السلطة بأن تكون معاملته لهم رقيقة ووديعة ، ومثل هذه الروح تأتى بأحسن النتائج ، لأنها فى الواقع ترفع من حالة المرؤسين المعنوية وتحببهم الى رئيسهم والى عملهم .

وإذا كان زميلا كانت روح معاملته مع زملائه مؤسسة على ايثارهم عليه ، فيبادر الى نجدتهم ، ويسارع إلى ما يكفل مصالحهم ، ويسابق إلى مسامحة المسئ منهم ، فيحل الصفاء محل الشحناء ، ويتسع المجال للانتاج الغزير الكامل من حيث الكيفية والكمية .

أما فى المعاملة الاجتماعية فيكون حريصا على أن يبدو مثلا لكل صورة ولكل وضع فهو حين يمشى يمثل المواطن الراقى الذى يشرف أمته ، فلا يدفع الناس بمنكبيه كالوحش الكاسر ولا يسابق الجمهور إلى مقعد خال باحدى وسائل المواصلات ليحتله متجاهلا شيخا متعبا أو امرأة مهما كان سنها ، ومهما كانت درجتها الاجتماعية .

ولا يتهاون فى كرامته القومية ، فلا يسير فى الطريق وهو يأكل موزا مثلا ، يلتهمه ثم يلقى بقشوره فى الطريق ، متجاهلا أن كل قشرة من هذه القشور إنما هى رصاصة قد أودعها الطريق العام لتؤذى أحد المارة الأبرياء حين يطؤها فتزل قدمه فيرتطم بما يجعله القدر من نصيبه سواء أكان لوحا من زجاج أحدى الوجهات أو أمام إحدى السيارات فتدهمه وتقتله ، هذا فضلا عما فى القاء هذه القشور من الدلالة على التأخر الاجتماعى والانحطاط عن مستوى الآدمية المتحضرة . وكم يبدو الفرق صارخا إذا قورنت هذه الحالة بحالة تلك البلاد التى عنيت بأن ترصف شوارعها بالأخشاب " الباركيه " والكاوتشوك ، فلا ترى العين أثرا لقصاصة من ورق هنا أوهناك . والقاء مثل هذه القصاصة فى تلك البلاد أمر يستلفت الأنظار ويثير الاندهاش ، كأنه هو جريمة من الجرائم الكبرى . فما بال القارئ الكريم بمن يبصق على الأرض أمام الأنظار ، أو يعبث فى أنفه فى أى مكان ، أو يعترض طريق الفتيات متظرفا ، يبغى أن يستلفت نظرهن ، وقصده المغازلة قوة واقتدارا ، قبل الجمهور ذلك أو لم يقبل ، ورضيت الفتاة بهذا الوضع أو لم ترض ، فكل الذى يشغل ذهنه أنه ظريف ، وأنه إنما يؤدى عملا طبيعيا لا يجرح كرامته القومية فى شيء ولا يغذى لسان الناقد المتربص بشيء .

وأما الميدان الثانى من ميادين الحياة وهو ميدان اللعب ، فهو مجال خصب لابراز الفضائل الخلقية ، وخاصة إذا كانت الألعاب تستلزم خصومة أو منافسة أو مقارعة ، وشتان بين لاعب فظ غليظ القلب شرير أنانى ، ولاعب رقيق ضحوك باسم إذا كانت له الغلبة بادر بالمجاملة والمصافحة ، وإذا كان مغلوبا تقبل المصير بتسامح ، واستخلص من هزيمته أسبابها ليعمل مستقبلا على تفاديها ، قابلا الحالة الحاضرة معترفا للغالب بالغلبة ، واضعا كل أمر فى موضعه الطبيعى .

وأما فى الميــدان الثالث من ميادين الحياة وهو ميدان العواطف ، فان ابراز الفضائل الخلقية أدعى ، فمن الناس من يكون رقيقا فى عتابه وفى حبه وفى غضبه ، فاذا عاتب راعى ألا يكون جارحا مهما كان نصيب القضية التى يدافع عنها من الوجاهة ، وإذا وجه الملوم دفاعا عن نفسه أنصت اليــه بصدر رحب وأقره إذا كان يستحق الإقرار . وإذا أحب كان غيريا فى حبه لا أثر للانانية فى جميع تصرفاته . فهو زوج وقور ، وأخ بار ، وأب رحيم بعيد الآفاق مدبر حكيم يرعى شؤون أسرته ، متفانيا فى سبيل سعادتها ، محافظا على تقاليدها وعفتها . زائدا عنها إذا تعرضت لخطر الانزلاق فى تيار المدنية الكاذب . فهو مشرف على كل حركاتها مراقب عن كثب تصرفاتها ، فلا يسمح مثلا لنساء أسرته أن يكشفن عن أجسامهن على شواطئ البحار فى مواسم الصيف الا فى الأماكن المخصصــة لهن . والواقع أن المرأة التى تعتقد أنها تستطيع أن تصيد إعجاب الرجل أو قلبه ، أو عنايته ، بالكشف عن جمالها المستور ، تكون خاطئة ومخطئة ، لأن الجمال الذى يحتفظ بقوة أغرائه ، ودوام استرعائه للانظار والقلوب ، هو ذلك الجمال المستتر الذى يوحى بمعانى الفضيلة من خجل الى خفر الى حسن تقدير ، وأما هذا الرخص البادى فى التبذل والعرى ، فمآله المجوج والاشمئزاز والنفور ، وستصدم الحقيقة المرة كبرياء المرأة العارية حين تدرك أن عين رجلها قد اتجهت الى الجمال المستور لتبحث عن غذائها الحقيق الذى ترتضيه وترتاح اليه .

والحقيقة أن الرجل هو المسؤول عن توجيه المرأة الى هذه الناحية وهو الملوم فى تهاونه عن ارشادها ونصحها ، لأنه رب البيت الذى تتكون فيه الفضائل والمبادىء الخلقية التى تنهض بالأمم ، فحيثما ازدهرت نهضة فى أمة ، كانت نواتها البيت . ولمــا كانت الدولة تتكون من البيوت ، كانت العناية بالبيت هى طرف الخيط فى نهضــة الأمة ، وما أعظم أمــة ينهض فيها الفرد ببيته ، ويعمل على انمائه واثرائه ، يحب أثاثه ويحب أشخاصه ، ويهبه كل عنايته واوقاته وجهوده ، ويرى أن ضيع أوقاته بين المقاهى والمنتديات والحانات والملاهى ، انما هو جريمة يعود أثرها على بيته وعلى أمته ، وفى هــذا يقول الشاعر :

وإنمــا الأمم الأخلاق ما بقيت ... فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

زينب محمد حسين